(١٠) خطبة له ﷺ
فى التنفير من الغفلة

عن علىٍّ أن النبى صلى الله عليه وعلى آله وسلم حمد الله وأثنى عليه، وقال :

« أمّا بعد، أيُّها الناس .. كأنَّ الموتَ فيها على غيرنا قد كُتب ، وكأن الحقَّ فيها على غيرنا قد وَجَب ، وكأنَّ الذى نشيِّع من الأمواتِ سفرٌ عمَّا قليل إلينا راجعون ، نبوِّئهم أجدائهم[١] ، ونأكلُ من تُراثهم كأنَّا مخلَّدون بعدَهم . قد نسينا كل واعظة وأمنّا كل جائحة[٢]. طُوْبَى[٣] لمن شغلَه عيبُه عن عيوبِ الناس . طوبَى لمنْ طابَ كسبُه ، وصلحتْ سريرتُه ، وحسنتْ علانيتُه ، واستقامتْ طويّته . طوبَى لمن تَواضَع لله فى غيرِ مَنقصة ، وأنفقَ مالاً جمعه فى غير مَعْصية ، وجالسَ أهلَ الفقْه والحِكْمة ، وخالطَ أهلَ الذُّلِ والمَسْكَنة . طوبَى لمنْ زكتْ وحسنتْ خليقتُه ، وطابتْ سريرتُه، وعزلَ عن الناسِ شرَّه. طوبَى لمنْ أنفقَ الفَضْلَ[٤] مِنْ مالِه ، وأمسكَ الفضلَ مِنْ قولِه ، ووسعتْهُ السُّنَّة ، ولم تَستهوِه البِدْعَة » .

---

(١) جمع جدث ، وهو القبر : أى : نتزلهم مقابرهم .
(٢) الجانحة، أى : الآفة المهلكة . (٣) طوبى : اسم شجرة فى الجنة .
(٤) أى : الزائد عن حاجته وحاجة أولاده .

وفى رواية :

«ولم يَعْدُ عَنْها إلى البِدْعَة ».

(أخرجه أبو نعيم، وقد ورد بألفاظ متقاربة)

فى هذه الخطبة العظيمة - كما قرأنا - يذكرنا النبى ﷺ - بأسلوب تقريعى - بهذه الحقيقة المهمة التى يجب أن لا تغيب أبداً عن أذهاننا، وأن تكون كذلك نُصب أعيننا؛ حتى لا نكون من أهل الغفلة الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم حتى أصبحوا لا يفكرون إلا فى الدنيا ولا يعملون إلا من أجلها: كأن الموت فيها على غيرهم قد كتب، وكأن الحق فيها على غيرهم قد وجب، إلى آخر هذا الوعظ المحمدى الذى يذيب القلوب، ويدمى العيون.

ثم نراه صلوات الله وسلامه عليه يوجههم - ويوجهنا من خلالهم - بعد ذلك توجيهاً مباشراً إلى الخلال الحميدة التى إن تخلّقوا بها كانوا فعلاً من المؤمنين حقاً، لأن الإيمان - كما جاء فى نص حديث شريف - لا يكمل إلا بحسن الخلق الذى جمعه النبى صلوات الله وسلامه عليه فى تلك المواعظ الجامعة المرغِّبة فى الخير، والمرهِّبة من الشر.

ثم يختم النبى ﷺ خطبته بقوله: **« طوبَى لِمَنْ انفقَ الفضْلَ من ماله، وأمسكَ الفضلَ من قوله »**: وهذا معناه أن النبى ﷺ: يريد - من كل مؤمن ومؤمنة - أن ينفق الزائد من ماله، ويمسك الزائد من قوله، وذلك حتى يكون هناك الأمن والأمان فى الدنيا والآخرة؛ لأن إنفاق

الزائد من المال الحلال معناه التراحم والتعاطف بينه وبين إخوانه المحتاجين ، ولأن إمساك الزائد من القول معناه المحافظة على مشاعر الآخرين : وهذا هو الإيمان الخالص ، والسلامة الكاملة فى الدنيا والآخرة .

كما يختم الرسول ﷺ أيضاً خطبته بقوله : «**ووسعتْه السُّنَّة ولم تستهوه البِدْعة**» : وهذه إشارة أخرى لابد وأن نلتفت إليها بقلوبنا ، بل لابد وأن نكون من الحريصين على تنفيذها حتى لا نضل أو نزل ، ففى الحديث الشريف : « **تركتُ فيكم ما إنْ تَمسَّكْتُم به لنْ تضلّوا بَعْدِى : كتابَ الله وسنَّتى** » . وفى الحديث : « **فعليكم بسنَّتى وسُنَّة الخلفاءِ الراشدينَ المهديين ، تمسّكوا بها وعضّوا عليها بالنَّواجذ ، وإيَّاكم ومحدثاتِ الأمور ، فإنَّ كلَّ محدثةٍ بدعةٌ ، وكلّ بدعةٍ ضلالة**»(١) . وفى الحديث: « **اتّبعوا ولا تَبتدعوا فقد كُفيتم**»(٢) . ولهذا فقد قال الأئمة الأعلام : « **مَن استحسنَ بدعةً فقد زعمَ أن محمداً خانَ الرسَالة** » .

فكن أخا الإسلام من المتمسكين بالسنة ، واحذر أن تستهويك البدعة :

---

(١) من حديث رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والحاكم وصححه ، والبيهقى ، والترمذى وقال : حسن صحيح .

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود .

اعْـمَـلْ بآثَـارِ النَّـبِيِّ ... فَـإنَّهَـا النُّـورُ المُـبِـيـنْ

واقْـبَلْ نَـصِـيْـحَـتَـهَـا ... فَفِيْهَا العِزُّ والشَّرَفُ المَكِينْ

واشْدُدْ يَمِيْنَكَ بِـالشَّرِيْعَةِ ... إنَّهَـا السَّـبَبُ المَـتِـيـنْ

وحسبك أنك بعد كل هذا ـ أو مع كل هذا ـ ستكون قد أكَّدت حبك للرسول ﷺ ، فقد ورد فى الحديث الشريف :

«مَنْ أحيا سُنَّتى فقد أحبَّنى، ومَنْ أحبَّنى كانَ معى فى الجَنَّة»[1] .

* وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« كُلُّ أُمَّتِى يدخلونَ الجَنَّة إلا مَنْ أبَى ». قالوا : يا رسول الله، ومن يأبى؟ . قال : « مَنْ أطاعَنى دخلَ الجَنَّة ، ومَنْ عصَانى فقد أبَى » .

(رواه البخارى)

* * *

(١) الحديث رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .